النظرية السياقية بين القدامى والمحدثين وعلاقة النظرية السياقية بالمعنى

Contextual theory between ancients and moderns and the relationship of contextual theory to meaning

خلود سليمان المطرفي Khulud Suliman ALmatrafi

جامعة طيبة / السعودية Taibah University Saudi Arabia

kmatrafi@taibahu.edu.sa

تاريخ الاستلام ٢٠٢٤/٠١/٠٨ تاريخ القبول ٢٠٢٤/٠٢/١٩

الكلمات المفتاحية: السياق، المعنى، النظرية السياقية، النحو القديم، النحو الحديث

Keywords: Context, meaning, contextual theory, ancient grammar, modern grammar

الملخص:

تناول البحث موضوع السياق بمعناه في المعاجم بوصفها مادة لغوية مستعمله في النظام اللغوي العربي بعامة، والسياق بمعناه الاصطلاحي ومفهومه في الدرس النحوي المعاصر، بمختلف اشكاله، في محاولة لتقريب المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي، والكشف عن العلاقة بينهما، ثم تطرق إلى عقد مقارنه بين الدرس النحوي القديم عند سيبويه وابن جني وغيرهما من النحاة الأوائل، وبين النحو المعاصر والحديث أمثال تمام حسان، كمال بشر، ومحمود السعران، يهدف من خلالها إلى سبر معرفة تطور النظرية السياقية، والكيفية التي تجلت من خلالها النظرية، والاختلاف بين الدرس النحوي القديم والمعاصر، فضلا عن إبراز تأثير المدرسة السياقية الغربية على البحث النحوي، ومما ظهر من خلال المطالعة والبحث إلى إدراك السياق ومعرفته بكافة تفريعاته لدى القدماء، وتأثيره على بناء الأحكام اللغوية من قبيل إعمال بعض الأدوات أو إهمالها إذا اقتضى السياق ذلك، أما الدرس اللغوي الحديث فقد تأثر بالدراسات الاجتماعية، والمدرسة السياقية لفيرث.

The research dealt with the topic of context in its meaning in dictionaries as a linguistic material used in the Arabic linguistic system in general, and context in its conventional meaning and its concept in the contemporary grammatical lesson, in its various forms, in an attempt to bring the linguistic meaning closer to the conventional meaning, and to reveal the relationship between them, and then touched on a comparison between the grammatical lesson The ancient grammar of Sibawayh, Ibn Jinni, and other early grammarians, and between contemporary and modern grammar such as Tammam Hassan, Kamal Bishr, and Hamoud Al-Saran, aims through it to explore knowledge of the development of contextual theory, the way in which the theory was revealed, and the difference between the ancient and contemporary grammatical lesson, In addition to highlighting the influence of the Western contextual school on grammatical research, what has emerged through reading and research is the awareness of context and its knowledge of all its branches among the ancients, and its influence on the construction of linguistic judgments, such as implementing or neglecting some tools if the context requires it. As for the modern linguistic lesson, it has been influenced by studies. The social and contextual school of Firth.

المطلب الأول: التعريف بالسياق وأنواعه:

أولا: معنى السياق في اللغة:

مادة السياق في المعجم القديم : " السين والواو والقاف أصل واحد حدو الشيء، ومعناها: ساقه يسوقه سوقا، والسيقة: ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته، والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع: أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع: سوق، وإنما سميت بذلك؛ لأن الماشي ينساق عليها"[١].

و تعريف السياق في العصر الحديث فالكلمة مشتقة من (س و ق) يقال: "ساق المريض سوقا وسياقا ، وسياقة، ومساقا : شرع في نزع الروح ... و يقال: ساق الله إليه خيرا و نحوه: بعثه وأرسله، وساقت الريح التراب والسحاب، رفعته وطيرته. وساق الحديث: سرده وسلسله.

١ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١١٧/٣.

وإليك يساق الحديث: يوجه. والمهر إلى المرأة: أرسله وحمله إليها ... السياق: المهر. و سياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه، والنزع يقال: هو في السياق: الاحتضار"[١].

نلحظ مما تقدم أن هناك قاسمًا مشتركًا بين معاني السياق في المعاجم، وهو " التتابع والسير والملاءمة والاتفاق والنظم، وقد رأينا منها ما يؤدي هذا المعنى مباشرة دون تأويل أو مشابهة "[٢].

ثانيًا: أقسام السياق: والسياق ينقسم إلى قسمين :

أ- السياق اللغوي:

أشار اللغويون إلى أن السياق اللغوي له أثر واضح في تغيير دلالة الكلمة، وفي ذلك أدرك اللغويون أن لهذا النوع أثرا في تغيير دلالة الكلمة ، وذلك إذا حدث تغيير في تركيب الجملة، والسياق اللغوي يشمل عدة عناصر وهي:

- الوحدات الصوتية والصرفية والكلمات التي يتحقق بها التركيب والسبك
- طريقة ترتيب هذه العناصر داخل التركيب.
- طريقة الأداء اللغوي المصاحبة للجمل أو ما يطلق عليه التطريز الصوتي.

وظواهر هذا الأداء المصاحبة المتمثلة في النبر والتنغيم والفاصلة الصوتية.

نلحظ من ذلك أن السياق اللغوي هو كل ما يتعلق بالإطار الداخلي للغة أو بنية النص وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية الوظيفية يعرفه تمام حسان بقوله: "سياق النص إما أن يكون قرينة تركيبية (نحوية أو معجمية) أو دلالية (قوامها العلاقات النصية)"[٣].

---

١ مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مطابع الأوفست ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٥م ، ٤٨٢/١.

٢ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٧م ، مادة (س و ق) ٣٦٩/٣.

٣ حسان ، تمام ، اجتهادات لغوية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م ،: ٢٣٧.

ب- مكونات السياق اللغوي: والسياق اللغوي يتكون من عدة مكونات ، وهي:

١- **السياق الصوتي:** يتمثل السياق الصوتي في" النظم اللفظي للصوت في إطار الأصوات الأخرى، على مستوى الكلمة أو الجملة والتحليل الفونولوجي يوضح لنا طبيعة هذا السياق وحدوده"[١].

ويضم السياق الصوتي وحدات التحليل الفونيم والنبر والتنغيم ، ومن ثم يعد الفونيم "المادة الأساس في قيم الدلالة باعتباره وسيلة مهمة لتوزيع الأصوات داخل منظومة السياق على وفق محتواها الوظيفي: قال، كال، نام، صام، حام، هام، ..."[٢].

وتبرز أهمية الأثر الصوتي في السياق اللغوي هو تأثيره الدلالي، وقد أدرك العرب هذا التأثير الدلالي الذي يطرأ على الكلمات على وفق السياق اللغوي.

٢- **السياق الصرفي:** يضم السياق الصرفي الصيغة الوظيفية ، أيضا معنى الزوائد أو اللواحق، ومن ثمّ فإن" المورفيمات، سواء كانت حرة أو مقيدة أو محايدة لا قيمة لها، إلا إذا كانت ضمن سياق تركيبي معين، ومثلها أحرف المضارعة، وسواها، فالبناء الصرفي يقود إلى دقة الانتساب للباب، ولكن هذا خارج نطاق السياق الصرفي الذي يتكون من المورفيمات وهي تمارس وظيفتها داخل النص"[٣].

٣- **السياق النحوي :** يمكن وصفه بأنه " شبكة من العلاقات القواعدية تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص، وفيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة من خلال القرائن النحوية، مثل (الإعراب)، وهو قرينة سياقية، تتعاون جاهدة مع غيرها في رسم شبكة البيانات الدلالية، وقد عده النحاة القدامى أصلا وأساسا لبيان الدلالة، وأنه كل النحو، والقرينة السياقية الكبرى"[٤].

---

١ خليل، عبد النعيم ، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط١،: ٣٨.

٢ عبد الجليل ، عبد القادر ، علم اللسانيات الحديثة ، دار الصفاء، عمان ، الأردن، ط١، ٢٠٠٢م، ص: ٥٤٢-٥٤٣.

٣ عبد الجليل ، عبد القادر ، علم اللسانيات الحديثة ، ٥٥٣.

٤ المصدر نفسه، ٥٥٦.

٤- **السياق المعجمي:** يمكن تعريفه بأنه عبارة عن "مجموع العلاقات الصوتية التي تتضافر من أجل تخصيص الوحدة اللغوية ببيان دلالي معين، يمنحها القدرة على التركيب وفق أنظمة اللغة المعينة، هذه الوحدة تشترك في علاقات أفقية مع وحدات أخرى لإنتاج المعنى السياقي العام للتركيب، ونحن لا نقصد معنى المفردة لوحدها داخل السياق وإنما مجتمعة الوحدات الأخرى المكونة "[١].

٥- **السياق الأسلوبي:** ولا يظهر السياق الأسلوبي إلا في النصوص الشعرية والبشرية أكثر منه في اللغة العادية، وهو يتميز بقوة النسيج، وجدارة البناء، وقوة التوالد الدلالي؛ لأنه ملك الفرد لا له، ومن حقه أن يمارس طاقته الإبداعية والإنتاجية في خلق أجيال جديدة من التراكيب التي تنهض على مستوى فني عالي النسيج"[٢]. وفي ذلك دلالة على أن الشاعر قد يلبس الصفات الإنسانية الأشياء المادية، فيجعل المعنوي محسوسًا، ويضيف عليها وظائف غير وظائفه الأساسية، وغير ذلك مما قد يضفيه من الدلالات، ويدركها المخاطب وفق السياق اللغوي، ويساعده على ذلك وجود القرينة في الوصول إلى الدلالات الخفية وراء السياق مرتبطة بالدلالات الجديدة المرجوة منها في السياق.

المطلب الثاني: النظرية السياقية عند النحاة القدامى، وعلاقتها بالمعنى:

لقد اهتم النحاة العرب بدراسة الظواهر الأسلوبية، وذلك وفق المراد بها في الاصطلاح حديثا، وقصدوا من وراء ذلك الوقوف على الأغراض المرجوة من ورائها، وبداية الاهتمام بدراسة الظواهر الأسلوبية يعود إلى عصر سيبويه، ومن ثم ما تلاه من العلماء، ومن أبرز العلماء الذين اهتموا بتناول هذه الظواهر من بعد هذا العصر الإمام عبد القاهر الجرجاني[٣]، وهو إمام في البلاغة، ومن ثمَّ امتزجت المباحث النحوية والبلاغية قديما، ويميز بينها من الكلام ، فهو معلوم لديهم، ويتدارسون الكلام من حيث كونه مطابقًا لمقتضى الحال أم لا، لذلك صار النحاة يهتمون بالقواعد النحوية للكلام، وإن كان اهتمام النحاة ظاهريا، يختص بوضع العلامة الإعرابية على

١ المصدر نفسه، ٥٤٦-٥٤٧.

٢ المصدر نفسه : ٥٤٧.

٣ينظر: صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان ، ط١، ٢٠٠٥م ، ٢٠٣، ٢٠٥.

آخر حرف في الكلمة، إلا أن يكون الإعراب مقدرًا، فالعلامة تقدر، وفي ذلك دلالة على ترابط سياق الجملة أو الجمل، فالعلماء كانوا على وعي تام بسياق النص، وإن لم يتناولوه بألفاظ واضحة في مؤلفاتهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن النحاة كانوا يدركون السياق بنوعيه: اللغوي والعام، هذا فضلا عن معرفتهم ببعض عناصر السياق ولو كانت تناولاتهم لهذه العناصر متناثرة في مؤلفاتهم.

والدراسات النحوية القديمة كان مفهومها مرتبطًا بالسياق اللغوي، وظهر ذلك من خلال عدة أمور، أبرزها: إهمال بعض الأدوات العاملة إذا اقتضى السياق ذلك، وإعطاء بعضها حكم الأدوات الأخرى، وكذلك من حيث الاهتمام بالإعراب اهتماما كبيرًا، وما يقتضيه الإعراب من الحذف، والتقدير.

فقد كان النحاة يوجهون الإعراب بحسب ما يفرضه السياق اللغوي من تقدير للمحذوف حتى يتناسب مع السياق الأصلي الذي تفرضه القواعد النحوية والأصول اللغوية، حيث إن السياق اللغوي باعتباره " يعتمد على عناصر لغوية في النص من ذكر جملة سابقة أو لاحقة، أو عنصر في جملة سابقة أو لاحقة، أو في الجملة نفسها يحول مدلول عنصر آخر إلى دلالة غير معروفة له"[1]، فهناك العديد من الألفاظ التي يتضح معناها من غير السياق ولكن ما زال الغموض يعتريها، وتحتاج إلى سياق يزيل إبهامها، نحو كلمة: (سفرجل، قلم) ، وغير ذلك، فأوزان هذه الصيغ يشترك مع وزن غيرها، والسياق هو الذي يوضح المراد من الصيغة في هذه العبارة، والمراد منها أيضا في عبارة أخرى.

وعلى النقيض من ذلك ، إنهم لم يربطوا بين الصيغ الصرفية والسياق اللغوي للتركيب، فقد درسوا القرائن الزمنية في السياق على أنه أدوات تؤدي وظائف إعرابية بحسب، وأما وظيفتها الزمنية فلم يذكروها إلا عرَضًا خلال الكلام، فضلا عن أنهم اعتنوا بـ" النبر والتنغيم فكليهما

١ حماسة، محمد عبد اللطيف، النحو و الدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار غريب، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م، ١٤٨.

يعدان من القرائن اللفظية أو المقالية والقرائن اللفظية كلها من السياق اللغوي الذي يعين على تحديد دلالة الجملة"[١].

نلحظ من ذلك أن" حضور المستوى الدلالي و تداعيه في أي تركيب لغوي لا يرد ولا يدحض، ولا يمكن لنا أن نستدل بالعربية كلها، وهي منتهية في جملها حتى نثبت ما ندعيه من الأهمية الدلالية التي لا يفسر المستوى النحوي بدونها، حتى لو تعلق الأمر بفارق لهجي بين قبيلتين فإن لكل أداء دواعيه الدلالية، وإما العنصر النحوي فليس إلا شكلا من إشكال هذه الدواعي الدلالية الداخلية في الأداء الكلامي ... والمستوى الدلالي مرتبط بأنظمة التواصل في اللغة العربية ارتباطا وثيقا مع المستوى النحوي وسائر المستويات الأخرى"[٢].

وأما ما يخص توجيه الإعراب فـ "إنهم كانوا يضفون على الكلمة وظيفتها الإعرابية بحسب ما يقتضيه السياق، ويفرضه المعنى، ويحاولون التنسيق بين السياق و القواعد الإعرابية إذا كان هناك تعارض بينهم"[٣]. فالنحاة يسمون الاختلافات النحوية تعدد الأوجه الإعرابية في الجملة، ويُختار الوجه الإعرابي المناسب على وفق البناء اللغوي، والقدرة على تفسير العبارة ، وذلك لا يكون إلا بفهم السياق فهما دقيقًا، وكثير من العبارات تحتمل عدة أوجه إعرابية، حيث يصلح فيها التقدير، فقد تعرب الكلمة الواحدة عدة إعرابات، ولكل إعراب منها سببه المختلف عن غيره، وذلك تبعًا لأسباب عديدة، أبرزها الحذف الذي قد يعتري الجملة ، وبناء على فهم السياق يُقدَّر المحذوف.

واعتنى النحاة بالسياق اللغوي، فقد اهتموا كذلك بالدلالة المترتبة على سياق الحال، فقد اعتنى النحاة بطريقة نطق المتكلم، وملاحظة تلويناته الصوتية في أثناء نطق الجملة، فالأصوات لها ارتباط وثيق بالمعنى العام المراد إيصاله إلى السامع، وكذلك اعتنوا بعلم السامع

---

١ المصدر نفسه، ١٥٨.

٢ مرتاض، عبد الجليل، في رحاب اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠٠٤م، ١٢٨.

٣ خليل، عبد النعيم ، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ١٤٠.

بالمراد، وفي ذلك ذكر ابن السراج أن "المحذوفات في كلامهم كثيرة، والاختصار في كلام الفصحاء كثير، موجود إذا أنسوا بعلم المخاطب ما يعنون"[١].

فضلا عن أن النحاة "راعوا في دراستهم لظاهرة التقدير والحذف، السياق الاجتماعي بكل ما فيه، و خصوصا المخاطب أو السامع الذي هو أهم عناصر السياق الاجتماعي، فالمحذوفات في صناعتهم على ثلاثة أقسام: محذوف لا يتم الكلام إلا به، حذف لعلم المخاطب به، كقولك لمن رايته يعطي الناس: زيدا؛ أي: أعط زيدا، فتحذفه وهو المراد"[٢].

وقد يلجأ المتكلم إلى التقديم والتأخير في ألفاظ الكلام، وفي ذلك ذكر القزويني أنه يقتضي أن يتوافر لدى المتكلم والمخاطب الحس المشترك الذي خزانته الخيال بدلًا من يقتضي الخيال... ؛ أي: خيال السامع على ما هو الغالب مع مراعاة حال المخاطب[٣]. فكل منهما يراعي عناصر السياق اللغوي، ويدرك المحذوف ، والمقدم والمؤخر، حتى يتم العلم بالمراد من العبارة.

ومراعاة السياق اللغوي التي اهتم بها النحاة عامة، وتلك الاهتمامات تدرك من دراسة تراكيبهم النحوية، ومن مؤلفاتهم. وفيما يأتي أذكر بعض النحاة القدامى الذين اهتموا بالسياق اللغوي.

أولا: سيبويه (١٨٠ هـ):

إن الإعراب عند سيبويه تابع للمعنى المرجو من وراء عبارات المتكلم، فالجملة عنده وإن كانت بنية جامدة، ولكنها حية في تراكيبها المتداولة بين المتكلم والمخاطب، فقد اعتنى كذلك بما يعنيه المتكلم من السياق اللغوي، حيث إن السياق لديه مرتبط للغاية بترتيب العناصر اللغوية وما يتعلق بها التقديم أو التأخير ، أو الذكر والحذف، وكذلك الأصوات والأداءات الكلامية كالنبر والتنغيم، ومن أبرز ما أشار إليه التقديم والتأخير، ففي قولنا: ضرب زيدًا عبد الله، تقدم المفعول به على الفاعل، وقال سيبويه: " إنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت مقدما، ولم

١ أبو بكر، محمد بن السري بن سهل بن السراج، الأصول في علم النحو، تح: عبد الحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، ٣٤١/٢.

٢ خليل ، عبد النعيم ، ١٤٠.

٣ القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ، بيروت ، ط٣، ١٣٨/٣.

ترد أن تشغل الفعل بأول منه، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[١].

وقد اهتم سيبويه بالسياق اللغوي – أيضًا– من حيث الحذف والإضمار، حيث أشار إلى أن الحذف الذي يتعلق بوجود دليل من سياق النص، أو يكون مذكورا في جملة سابقة أو لاحقة يفسر المحذوف ويدل عليه، ومن ذلك قوله: "ومما ينصب أيضا على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، قول العرب: حدث فلان بكذا وكذا، فتقول: صادق والله، أو أنشدك شعرا فتقول: صادق والله، أي: قاله صادقا؛ لأنك إذا أنشدك فكأنه قد قال كذا"[٢]، فكما نلحظ أن السياق اللغوي للنص المذكور قد دل على الفعل المحذوف (قاله).

واهتم سيبويه بالسياق اللغوي–أيضًا– بأنه اعتنى بالأداء الكلامي، واهتم كذلك بما يصحبه من النبر والتنغيم ، ومثَّل لذلك بقوله: "وإنما المستغاث به (فيا) لازمة له؛ لأنه يجتهد فكذلك المتعجب منه، وذلك: يا للناس، و يا للناس، و يا للماء، وإنما اجتهد؛ لأن المستغاث عندهم متراخ أو غافل، والمتعجب كذلك، والندبة يلزمها (يا) و (وا)؛ لأنهم يختلطون ويدعون ما قد فات وبعد عنهم، ومع ذلك أن الندبة كأنهم يترنمون فيها فمن ثم ألزموها المد و الحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترنم"[٣]. وعلى الرغم من اهتمام سيبويه بالسياق اللغوي إلا أنه كان يدرك ذلك، ويعتني بالسياق المقامي، ويلحظ ذلك من إشاراته إلى العوامل الخارجية المحيطة بالحدث اللغوي.

راعى سيبويه السياق اللغوي، فكذلك راعى سياق الحال، حيث إن اللغة لا تنفك عن السياق الاجتماعي، فضلا عن البناء الداخلي، وفي ذلك اعتبر سيبويه موقف الاستعمال فيصلا في الحكم بصحة التراكيب النحوية وخطئها، فقد يكون التركيب صحيحا في موقف و ربما لا

١ سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط٣ ، ١٩٨٨م، ٣٤/١.

٢ المصدر نفسه ، ٢٧١/١.

٣ سيبويه ، الكتاب ، ٢٣١/٢.

يكون كذلك في موقف آخر[١]. وبناء على ذلك فقد قسم سيبويه الكلام قائلا: إن الكلام " منه مستقيم حسن و محال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غدا، فأما المحال: أن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا و سأتيك أمس، وأما المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[٢]. نلحظ من ذلك أن سيبويه لا يُعَدُّ الكلام صحيحا لديه أو كاذبًا إلا بصحة التركيب إلى جانب مواءمة الموقف الخارجي وما يناسب كلام العرب.

وأدرك الأهمية الكبرى للجانب الدلالي والصوتي لفهم السياق نجد أن سيبويه يعاتب من يهملهما، حيث عاتب النحاة الذين يهملون الجانب الدلالي والصوتي ، فهما عنصران أساسيان لإدراك السياق اللغوي، حيث يعينان على فهم الواضح الدقيق لمراد المتكلم، وفي ذلك قال: "فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب..."[٣].

وذكر سيبويه الحال في كتابه في مواضع عديدة، منها عنوان أطلقه تحت مسمى (هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي)، وذلك قولك: إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج قاصدا في هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة حيث فطنت أنه يريد مكة، قلت: يريد مكة والله، أو رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس، فقلت: القرطاس والله؛ أي: أصاب القرطاس، ولو رأيت ناسا ينظرون إلى الهلال وأنت منهم بعيد، فكبروا، لقلت: أي الهلال ورب الكعبة؛ أي: أبصروا الهلال أو رأيت ضربا، فقلت على وجه التفاؤل: (عبد الله)؛ أي؛ يقع بعبد الله، أو بعبد الله يكون"[٤]. وفي ذلك دلالة على أن سيبويه يعتمد على سياق الحال في تقدير ما حذف من العبارة ، ونلحظ أن عناية سيبويه بالسياق يتسق مع أحدث الاتجاهات اللغوية على

١ ينظر: عمايرة، حليمة أحمد ، الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى ١٠٠.

٢ سيبويه، ٢٤/١.

٣ المصدر نفسه، ٨٠/٢-٨١.

٤ المصدر نفسه، ٢٥٧/١.

الرغم من تباعد الزمن، ويمكننا القول إن سيبويه يعد بحق رائد النظرية السياقية؛ إذ طبق عمليا وبأحكام جميع عناصر نظرية السياق اللغوي بكل دقة.

ثانيًا: ابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) :

أشار ابن الأنباري كثيرًا إلى سياق المقام، وبرز ذلك في كتاب "الأضداد" ، فمراعاة السياق أساس يظهر من خلاله التضاد، ويمثل ذلك تناوله الفعل "هَمَّ" في قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]، فهو يفسر الفعل (هم) بأن الهم منها غير الهم من سيدنا يوسف –عليه السلام– وذلك مراعاة للسياق الاجتماعي ، فيوسف –عليه السلام– نشأ في أسرة لا يتناسب معها ما يدل عليه المعنى المعجمي للفعل في الآية، فضلا عن أنه نبي قد استخلصه ربه و طهره[2]، وذكر ابن الأنباري أنه مما يفسر في كتاب الله –عز وجل– تفاسير متضادة قوله جل اسمه : ولقد همت به وهم بها " ، فيقول الناس: ما هم يوسف بالزنا قط ؛ لأن الله عز وجل قد أخلصه و طهره، فغير جائز أن يهم بالزنا، و إنما أراد الله عز وجل: وهم بضربها و دفعها عن نفسه، فكان البرهان الذي رأه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه متى ضربها كان ضربه إياها حجة عليه؛ لأنها تقول : راودني عن نفسه فلما لم أجبه ضربني[3].

نلحظ مما ذكره أن ابن الأنباري لا يقتصر على المعنى المعجمي بل يربط القول بالسياق الاجتماعي للموقف، ويؤكد ذلك سياق النص الذي ورد فيه الفعل (همَّ) ، فيه إشارة تؤكد مراعاته السياق، حيث ذكر ابن الأنباري "أن كلام العرب يصحح بعضه ويرتبط أوله بآخره، ولا

---

١ يوسف: ٢٤-٢٥.

٢ ينظر: خليل، عبد النعيم، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، ١٤٧.

٣ ابن الأنباري، محمد بن القاسم، الأضداد، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩١م، ٤١١.

يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه و استكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين؛ لأنه يتقدمها، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم و الإخبار إلا معنى واحدا"[1]، ونلحظ من ذلك مدى أهمية مراعاة تفسير التضاد على وفق السياق اللغوي للفظة، لمعرفة المراد من ورائها وقصد المتكلم، فضلا عن توكيد مدى أهمية السياق اللغوي عند النحاة في القضايا اللغوية، ومراعاة السياق الاجتماعي أحيانًا كثيرة، فالمكان عنصر مهم من العناصر المكونة لهذا السياق، يقول ابن الأنباري: و يقال ارتجيت و رجيت بمعنى، قال الشاعر:

"فرجي الخير وانتظري إيانيَّ إذا ما القارض العنزي أبا"

... و كنانة وخزاعة و مضر و هذيل يقولون: لم أرج، يريدون لم أبال"[2].

ثالثًا: ابن جني (ت ٣٩٢ هـ):

لقد اهتم ابن جني بالسياق اللغوي، وذلك نظرًا لدوره الكبير في معرفة المعنى المراد أن يصل من المتكلم إلى المخاطب، فاللغة لدى ابن جني تصور ما في النفس، ويدرك منها الدلالة التي تصدر عن الحدث الكلامي، ومما يؤكد اهتمامه بمراعاة السياق قوله: "أولا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه، فيقول له: (يا فلان أين أنت أرني وجهك أقبل على أحدثك، إما أنت حاضر ها هنا)، فإذا أقبل عليه وأصغى إليه اندفع بحديثه أو يأمره أو ينهاه أو نحو ذلك، فلو كان استماع الآذان مغنيا عن مقابلته العين مجزئا عنه لما تكلف القائل ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه"[3].

---

١ ابن الأنباري، محمد بن القاسم، الأضداد، ، ٢.

٢ المصدر نفسه ، ١٨٧.

٣ ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ٢٤٦/١-٢٤٧.

ومما يدل على اهتمام ابن جنى بالسياق اللغوي قوله: " فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا ، أي: الرواة تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها... ألا ترى إلى قوله: الهذلول بن كعب العنبري[الطويل]

تقول وصكت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس

فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحي المتقاعس؟ من غير أن يذكر صك الوجه، لا علمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: وصكت وجهها، علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال وغير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين..."[١]. وفي ذلك دليل على اهتمام ابن جني بالسياق اهتماما كبيرًا، فهو يصور ما في النفس، ويعد دليلا على صدق القول.

وابن جني قد ذهب في الإشارة إلى أهمية السياق إلى أبعد من ذلك ؛ إذ إنه "يرى أن الحال المشاهدة (الحدث غير الكلامي)، يمكن أن ينوب عن اللفظ و يكون له تأثيره في بيان المعاني النحوية، التي تترتب عليها المعاني الدلالية"[٢]. فالمقام له تأثير كبير على اللفظ والمعنى الذي يرجو المتكلم أن يحدده للمخاطب.

فضلا عن اهتمامه البالغ بأهمية المقام – الذي عبر عنه في هذا الموضع بمصطلح الحال– في تحديد المدلولات المتعلقة بالمداخل المعجمية (المفردات)، بوصفها ألفاظا دالة، متواضعا عليها في البيئة اللغوية المتجانسة، فيقول: " نعم، وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنا... فيكون الأول الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله وقعت عليه التسمية و الآخر –لبعده عن الحال– لم يعرف السبب للتسمية..."[٣].

وقد أشار أيضا إلى الأثر الصوتي الذي تحدثه الألفاظ، حيث تناول النبر والتنغيم، وإن لم يذكر التنغيم بألفاظ صريحة؛ إذ قال:" لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال

١ ابن جني، الخصائص، ٢٤٥/١ ، ٢٤٦.

٢ عمايرة، حليمة أحمد ، الاتجاهات اللغوية لدى القدماء، دراسة في ضوء المناهج المعاصرة، ٩٩.

٣ ابن جني ، الخصائص، ٦٦/١.

خبرا، وذلك نحو قولك: مررت برجل، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهما، وكذلك: مررت برجل أيما رجل؛ لأن ما زائدة ... و كقول الله سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾[1] وذلك إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيا؛ أي: ما قلت لهم"[2].

فضلا عما تقدم نجد ابن جني قد أشار إلى أهمية الرتبة في الكلام والسياق، حيث لها أهمية بالغة في الدلالة، حيث قال: " ويدلك على تمكن المعنى في أنفسهم وتقدمه للفظ عندهم تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة، وذلك لقوة العناية به؛ فقدموا دليله ليكون ذلك أمارة لتمكنه عندهم، وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل؛ إذ كن دلائل على الفاعلين، ومن هم، و ما هم، و كم عدتهم، ونحو أفعل، و تفعل، و يفعل ..."[3].

ونلحظ مما تقدم أن ابن جني أدرك ما يعنيه المحدثون في مفهوم سياق الحال، على الرغم من الفارق الزمني بينهما ، فالمتأمل حديثه يدرك مدى اهتمامه بالمتكلم والسامع وما يصحب الكلام من العناصر اللغوية، ومن ذلك قوله: " وليست كل حكاية تروى لنا، ولا كل خير ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال النابعة له المقترنة به ، نعم ، ولو نقلت إلينا لم لقد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها"[4].

وقد وافق ابن جني المحدثين أيضًا في معالجة قضية الحذف والتقدير ، فقد وافقهم في معظم عناصر نظرية السياق، حيث تستوجب مراعاة الحال بالنسبة للمتكلم والسامع وعلاقة كل منهما بالآخر، وكذلك مراعاة الزمان والمكان، فكل هذ العناصر تساعد على فهم الحدث اللغوي، وأغراض الأشخاص.

---

١ المائدة: ١١٦.

٢ المصدر نفسه، ٣/ ٢٦٩.

٣ نفسه، ٢٢٦/١.

٤ المصدر نفسه، ٢٤٦/١.

رابعًا: المبرد (ت ٢٨٥ هـ):

لقد اهتم المبرد بالسياق اللغوية كسابقيه من العلماء، حيث لاحظ كغيره من النحاة ؛ إذ قال:" وأحسن مثال على ذلك قوله:" والدعاء يجري مجرى الأمر و النهي، وإنما سمي هذا أمرا و نهيا، و قبل للآخر: طلب للمعنى فأما اللفظ الواحد، و ذلك قولك في الطلب: اللهم اغفر لي، ولا يقطع الله يد زيد، ولينفر لخالد، فإنما تقول: سألت الله، ولا تقل: أمرت الله، و كذلك لو قلت للخليفة: انظر في أمري أنصفني، لقلت: سألته، و لم تقل: أمرته"[١].

وفي ذلك كلام المبرد هذا توكيد على اهتمامه وإدراكه السياق، وقد فسر ذلك بقوله: "لأنك تأمر من هو دونك، و تطلب إلى من أنت دونه"[٢].

ومن الأمثلة التي تؤكد مدى عناية المبرد بسياق الحال أو المقام، الذي ينتج من مراعاة العنصرين: الاجتماعي واللغوي، قوله: "ألا ترى أنك تقول: غفر الله لزيد، فلفظه لفظ ما قد وقع، ومعناه: أسال الله أن يغفر له، فلما علم السامع أنك غير مخبر عن الله بأنه فعل، جاز أن يقع ما ذكرناه، ولم يفهم عن قائله إلا على ذلك"[٣].

خامسًا: ابن هشام (ت٧٦١ هـ):

لقد اعتمد ابن هشام اعتمادًا كبيرًا على عنصر المعنى والسياق في توجيه إعراب ألفاظ الجمل النحوية، فضلا عن مراعاته المقام، ومن ذلك قوله: " وها أنا مورد بعون الله أمثلة مني بني فيها على ظاهر اللفظ، ولم ينظر في معناه وجب المعني حصل الفساد ... فإحداها :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[٤] فإنه يتبادر إلى الذهن أن عطف (أن

١ المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت،٤٤/٢.

٢ المرجع السابق، ١٣٢/٢.

٣ المبرد، المقتضب، ٣٢٥/٢.

٤ هود: ٨٧.

نفعل) على (أن نترك)، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، وإنما هي عطف على (ما)، فهو معمول الترك، والمعنى أن نترك، (أن تفعل)"[١].

كان لزامًا أن يهتم النحاة بسياق الحال في جميع تخريجاتهم النحوية، ولكن كان إدراكهم للسياق " بزاوية خاصة تنفق و منهجهم في البحث الذي لا يرتكز على جانب واحد من جوانب الدرس اللغوي، بل يشمل على معظم الجوانب اللغوية مختلطة، فلا نجد أثرا علميا خالصا في فرع من فروع اللغة، بل جاءت إشاراتهم اللغوية مزيجا من النحو والصرف والأصوات والدلالة، ومن ثم فإننا نجد لسياق الحال عندهم منبثا بين كثير من القضايا اللغوية كقضية الحذف أو البحث عن العامل في النحو أو قضية البحث عن المعنى في الدلالة"[٢].

ومن ثمَّ ندرك أنه شائع بالخطأ أن النحاة يهتمون بالإعراب لبيان أحوال الكلمات فحسب، بل كانوا يعنون إلى ما هو أبعد من ذلك حيث إنهم اعتنوا بـ" التحليل النحوي الذي يعني ببيان الوظيفة النحوية لكل لفظ أو جملة في التركيب بما في ذلك العلامة الإعرابية التي تشير إلى هذه الوظيفة، والإعراب بهذا المفهوم لا يتأتى إلا بعد إتقان المعرب لأصول النحو، أو نظام التركيب للغة والوقوف على أسراره"[٣].

نلحظ مما تقدم مدى اهتمام اللغويين القدامى بالسياق اللغوي، والمعنى الدلالي وغير ذلك مما يشمل جميع المعاني الوظيفية الصوتية والصرفية والنحوية، فضلا عن المعاني المعجمية للكلمات المكونة للترتيب ، ومراعاة الحال أو المقام والظروف الخارجية لصاحب المقال.

---

١ ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١م، ٥٢٩/٢.

٢ خليل ، عبد النعيم، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، ١٣٤.

٣ الرّمالي، ممدوح عبد الرحمن، العربية والوظائف النحوية ، دراسة في اتساع النظام والأساليب، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٥.

المطلب الثالث: النظرية السياقية عند النحاة المحدثين، وعلاقتها بالمعنى:

إن الدرس اللغوي العربي الحديث منذ بداياته يقترن بثلاثة من التلاميذ البارزين الذين تتلمذوا على يد اللغوي فيرث صاحب النظرية السياقية، وهؤلاء الثلاثة: د. محمود السعران ود. تمام حسان، ود. كمال بشر، حيث أخذوا النظرية عن أستاذهم "فيرث"، ونقلوا أفكاره إلى الدرس اللغوي العربي، وواصلوا البذل العلمي في أصول الدراسة اللسانية العلمية الحديثة ، ومن أبرز ما قدموا : النظرية السياقية ، حيث تناولوها في العديد من كتاباتهم بالبحث والتأليف ، فقد عالجوا نظرية السياق اللغوية معالجة بديعة، فضلا عن التطبيق العلمي ، ولهم إسهامات شخصية بديعة كذلك ، وآراء فريدة ذات إضافات تكمل ما وصل إليه أستاذهم في نظرية السياق.

ومن أبرز المؤلفات للعلماء المحدثين نجد كتاب "علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، للدكتور محمود السعران، هو كتاب جم الفوائد في الدرس اللغوي العربي ، حيث حوى هذا الكتاب مسيرة الدرس اللغوي الغربي حتى فترة الأربعينيات من القرن الماضي ، فضلا عن أنه لخص مختلف المدارس والمناهج اللغوية الغربية بشكل يستطيع معه المطلع عليه أخذ صورة عامة وثيقة، تكسبه ثقافة ودراية عما هو حاصل في الركن الغربي من اللغويات آنذاك، وقد تناول أيضا نظرية السياق، وذلك إزاء تعرضه لمدرسة "فيرث" التي تمثل عنده آخر المدارس اللغوية، التي اهتمت بقضية المعنى، وكان يسبق اسم فيرث دائما بلفظة (الأستاذ) ولاء له وإشادة بآرائه ، وقد انحاز له كثيرًا وخاصة في نظرية السياق. وفي ذلك ذكر الدكتور حلمي خليل في تصديره كتاب السعران:" وهنا يتضح انحيازه الكامل إلى المدرسة الاجتماعية الإنجليزية التي يتزعمها أستاذه "فيرث" ... "[١].

ومن النماذج التي ساقها الدكتور السعران في شأن ما تقدم ما ذكر عن كلمة (أول) في الآية الكريمة، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

١ السعران ، محمود ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٧م ،: ١٢.

سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [1] ، فقد ذهب إلى أن المراد "البيت" في الآية الكريمة الكعبة المشرفة كما هو معلوم من المفسرين، لكن الإشكال كامن في (أول) ، هل المقصود أن الكعبة هي أول ما بني على ظهر الأرض، وهو مذهب بعض المفسرين، أم المقصود أن الكعبة هي أول بيت وضع لعبادة الله وحده ، وهو مذهب المدققين من المفسرين ورأيه هو أيضا، ودليل ذلك قرائن لغوية مقالية هي آيات بينات أخرى في الكتاب المطهر تضمنت أخبارا عن أمر الله عز وجل سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة، وكان قبلهما خلق كثير[2]. وفي ذلك دلالة على كون الدكتور السعران يستعمل السياق اللغوي ويعني به عناية فائقة.

ومن العلماء المحدثين الذين استعملوا السياق اللغوي ، واهتموا به في مؤلفاتهم ، تمام حسان، حيث إنه أقر بالسياق اللغوي في كتابه:" اللغة العربية معناها ومبناها"، فقد اعتبر النظرية السياقية من الإسهامات البارزة المتميزة في الدرس اللغوي الحديث، فضلا عن أنه سعى إلى تطبيقها على اللغة العربية من خلال كتابه ذاك[3]، وفي هذا البحث قد اعتنى بالسياق ووظفه توظيفًا كبيرًا في استخراج المعنى ، وشجع على استعماله لمن أراد الوصول إلى الدلالة المعنية من وراء قصد المتكلم، وكذلك الوقوف على الأغراض الكلامية المناسبة للمقام أول الحال.

و تمام حسان يذهب إلى أن للمعنى ثلاثة أنواع ، والثلاثة يستخدمون لتأدية المعنى المرجو إيضاحه للمخاطب؛ إذ قال: "... هو الهدف المركزي الذي تصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب... "[4]، ويرى أن المعنى يتفرع إلى ثلاثة أجزاء مطلبا منهجيا فقط "... أحدها المعنى الوظيفي؛ وهو وظيفة الجزء التحليلي في النظام، أو في السياق على حد سواء، والثاني، المعنى المعجمي للكلمة؛ وكلاهما متعدد ومحتمل خارج السياق، و واحد فقط في السياق، والثالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام..."[5].

---

[1] آل عمران: ٩٦-٩٧.

٢ السعران ، محمود ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص: ٢١٧.

٣ حسان ، تمام ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، عالم الكتب، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص: ١١٧.

٤ حسان ، تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب ، القاهرة، ط٣ ، ١٩٩٨م، ٢٨-٢٩.

٥ المصدر نفسه، ص: ٢٩.

وقد أشار الدكتور تمام إلى أن المعجم له فائدة كبرى في إدراك المعنى ، ولكن المعجم يفتقر إلى السياق حتى يتحدد معنى الكلمة المعجمية، فهي متعددة الاحتمالات المعنوية ، وقد وصف المعجم بأن قائمة من الكلمات لا نظام لها، ويشكل في الآن نفسه جزءا مهما من اللغة لإمداده إياها بمادة عملها، أو ما هو مختزن في ذاكرة المجتمع من مفردات، ويرجئ علة تعدد معنى الكلمة في المعجم واحتماله "... إلى صلاحيتها للدخول في أكثر من سياق، وثبوت ذلك لها سبق استعمالها في نصوص عربية قديمة وحديثة ، ومن صلاحيتها للدخول في أكثر من سياق يأتي تعدد معناها واحتماله في حالة الإفراد"[١].

فضلا عما تقدم قد بحث الدكتور تمام بعض المفاهيم والمتعلقات السياقية كالتضام الذي يحده في عمومه بأنه"... تطلب إحدى الكلمتين الأخرى في الاستعمال على صورة تجعل إحداهما تستدعي الأخرى..."[٢]، وله وجهان؛ وجه سماه "التوارد"، وهو تضام دلالي مثَّل له بكلمة (صاحب)، التي يتعدد معناها مع كل ضميمة تتوارد معها، و وجه آخر سماه "التلازم"؛ وهو تضام نحوي، مثل: رغب فيه طلبه، وعنه كرهه، وإليه استعانة ...إلخ، كما أشار إلى ما يعرف بـ :"التعبيرات المسكوكة" وعدها من قبيل التضام، وهي عبارات تبددت معانيها البيانية واضمحلت إلى أن صارت كالأمثال التي لا يعتروها التغيير، نحو: يلقي الحبل على الغارب وغيرها[٣].

نلحظ مما تقدم مدى إجادة الدكتور تمام حسان في بحث النظرية السياقية، واستعمالها استعمالا جيدًا نظرية وتطبيقا، فضلا عن استخدامه الطرق التحليلية التي تقدمها فروع الدراسات اللغوية المختلفة: الصوتيات والصرف والنحو(أدوات تحليل المعنى الوظيفي)، ثم المعجم ليتشكل بمجموعها مع القرائن المقالية المصاحبة للمعنى المقالي وهو قسيم المعنى المقامي في المعنى الكلي "المعنى الدلالي".

ومن المحدثين المبدعين الذين تناولوا النظرية السياقية، كمال بشر، حيث اعتنى بالمدرسة الاجتماعية، وفي ذلك قال: "... ونحن من جانبنا لا يسعنا إلا أن نتبع هذه المدرسة؛

---

١ حسان ، تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها، ٣٢٣-٣٢٤.

٢ المصدر نفسه ،: ٣٢٤.

٣ ينظر : حسان ، تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ٣٣١.

لأنّ في مناهجها ما يكفل لنا الوصول إلى نتائج صحيحة خالية من الاضطراب والخلط ... تذهب إلى أن المعنى اللغوي ليس إلا مجموعة الخصائص والمميزات اللغوية للحدث اللغوي"[١]، لكنه لا يقر بالمناهج الأخرى كالمنهج العقلي والنفسي والسلوكي، حيث يرى أنها تؤدي إلى الخلط خلال البحث عن المعنى ونتائجه، أو لأنها في نظره دخيلة على اللغة ، أو لأنها في نظره تتناول المعنى على أنه مجموعة مثيرات واستجابات آلية خالية من العوامل الإنسانية ، وذكر في ذلك قوله: " ... علينا أن نعترف بها و أن نشير إليها، ولكن في أسلوب لغوي محض، هذا الأسلوب اللغوي المحض هو ما سارت عليه المدرسة التي يرأسها الأستاذ "فيرث"، والتي ترى أن المعنى اللغوي هو مجموعة الخصائص والمميزات اللغوية للحدث المدروس، وهذه الخصائص لا تدرس دفعة واحدة بل لابد من تناولها على مراحل أو مستويات مختلفة. والمعنى بهذا المفهوم شيء معقد أجزاء أو عناصر مختلفة ، و وظيفة فروع علم اللغة مجتمعة بيان هذه العناصر وتحليلها"[٢].

نلحظ مما تقدم أن كمال بشر قد اعتنى عناية كبيرة بالنظرية السياقية، وقد دعا إلى تطبيقها وممارستها ، لكونها تقوم على تحليل المستويات اللغوية للتركيب أو المنطوق مع مراعاة الملامح الصوتية الموجهة ؛ لأنها تسهم بشكل كبير في تحديد الدلالة في النص المنطوق. وأن الصعوبة لا توجد إلا في النصوص المكتوبة، حيث تنعدم فيها عدة عناصر، أهمها العنصر النطقي، ومن أجل ذلك فهو يقترح السعي– قدر الممكن– إلى خلق أو محاولة تصور مسرح مناسب للنص بالاعتماد على ثقافة واسعة ، ولباقة ، وذكاء ، و إدراك بالقدر المطلوب[٣] .

ومن اللغويين المحدثين البارزين الذين تناولوا النظرية السياقية ، حلمي خليل في كتبه (العربية وعلم اللغة البنيوي) و (مقدمة لدراسة التراث المعجمي) و(مقدمة لدراسة علم اللغة) و(الكلمة دراسة لغوية معجمية)، وبشيء من التفصيل يبحث نظرية "فيرث" اللغوية أو المدرسة

١ ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، هامش ٣١.

٢ المصدر نفسه: ٨١.

٣ ينظر : بشر، كمال ، دراسات في علم اللغة، (القسم الثاني) ، دار المعارف ، مصر ، ط٢، ١٩٧١م، ٦٥-٦٦.

الاجتماعية البريطانية، ويستعرض أركان التحليل اللغوي عند "فيرث" مع التمثيل لذلك[١]. وقد عرف السياق اللغوي بأنه"...الأصوات والكلمات والجمل ، كما تتابع في حدث كلامي معين أو نص لغوي ، فالأصوات مثلا تكون –عادة– خاضعة للسياق الذي تتركب فيه ، في تأثر كل صوت بما يتقدمه أو يأتي بعده من أصوات ، مثال ذلك صوت اللام المفخمة كما في قولنا:(والله) ، والمرققة كما في قولنا: (بالله) حيث يختلف صوت اللام في كل منطوق تبعا للفونيم الذي يسبق لفظ الجلالة ... "[٢].

والملاحظ أنه حلّل على وفق المستويات اللغوية مكونات الجملة متأثرا بمنهجية "فيرث" وصولا إلى المعنى، وقد وصل إلى نتيجة مفادها "... أن المعنى الحقيقي للكلمات لا يكون إلا من خلال السياق [٣]، و " إن نظرية السياق تشكل بلا شك ركنا هاما من أركان علم الدلالة الآن ..."[٤].

ومن اللغويين المحدثين البارزين كذلك في دراسة النظرية السياقية في الدرس اللغوي ، الدكتور محمود نحلة ، وقد درس النظرية اللغوية عند هاليداي ، التي تسمى بـ : "علم اللغة النظامي"؛ إذ ذكر الدكتور محمود أنه قام في مبدأ أمره على أفكار اللغوي الإنجليزي "فيرث"، ثم طورها "هاليداي" ومنحها التماسك والوضوح، والتأطير المحكم، وزاد عليها بأن نهل من مصادر أخرى من أهمها: بحوث مالينوفسكي، وآراء هلمسلف، ومدرسة براغ وغيرها[٥]، ومن ثم قدم لنا الدكتور محمود كتابا تتبع فيه نشأة هذه النظرية التي قوامها جهود فيرث، خاصة نظرية السياق، وكيف نمت وتطورت، والتغير الذي شابها إن بحذف أو إضافة أفكار ومعارف أخرى، رسمت في مجموعها المسار التطوري لنظرية "فيرث" ، وأوضح الأسس التي بنيت عليها تلك

١ ينظر: خليل، حلمي ، العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٣١–١٣٥.

٢ خليل ، حلمي ، الكلمة دراسة لغوية معجمية ، دار المعرفة الجامعية ، ط٢ ، ١٩٩٨م ،: ١٦١.

٣ المصدر نفسه، ١٦٣.

٤ خليل ، حلمي ، الكلمة دراسة لغوية معجمية ، ١٦٢.

٥ نحلة ، محمود ، علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي ، ملتقى الفكر، الإسكندرية ، ١٩٩٨م ، ٥

النظرية في صورتها المطورة، بتقديم الأمثلة التطبيقية من اللغة العربية [١]، وفي ذلك قال: "وقد كنت حريصا طوال البحث على إيراد الأمثلة من اللغة العربية إشعارا بيسر تطبيق هذه النظرية على اللغة العربية ، حتى يتاح لي أو لغيري دراسة اللغة العربية من خلال ما قدمه هاليداي من أسس منهجية و طرائق في التحليل، فهاليداي نفسه يرى أنّ أية نظرية ليست جديرة بأن تسمى نظرية إلا إذا أمكن تطبيقها على كل اللغات"[٢].

الخاتمة: وقد اسفر البحث عن النتائج الآتية:

أولا: لقد اهتم العلماء العرب بدراسة الظواهر الأسلوبية، وذلك على وفق المراد بها في الاصطلاح حديثا، وقصدوا من وراء ذلك الوقوف على الأغراض المرجوة من ورائها؛ لذلك صار النحاة يهتمون بالقواعد النحوية للكلام، وإن كان اهتمام النحاة يختص بوضع العلامة الإعرابية على آخر حرف في الكلمة، إلا أن يكون الإعراب مقدرًا، فالعلامة تقدر، وفي ذلك دلالة على ترابط سياق الجملة أو الجمل، فالعلماء كانوا على وعي تام بسياق النص، وإن لم يتناولوه بألفاظ واضحة في مؤلفاتهم.

ثانيا: تجدر الإشارة إلى أن النحاة كانوا يدركون السياق بنوعيه: اللغوي والعام، فضلا عن معرفتهم ببعض عناصر السياق ولو كانت تناولاتهم لهذه العناصر متناثرة في مؤلفاتهم.

ثالثا: شملت الدراسات النحوية القديمة مفهوم السياق اللغوي، وظهر ذلك من خلال عدة أمور، أبرزها هو إهمال بعض الأدوات العاملة إذا اقتضى السياق ذلك، وإعطاء بعضها حكم الأدوات الأخرى، وكذلك من حيث الاهتمام بالإعراب اهتماما كبيرًا، وما يقتضيه الإعراب من الحذف، والتقدير.

رابعا: تأثر الدرس العربي الحديث بمدرسة فيرث السياقية، فقد اقترن منذ بداياته بثلاثة من التلاميذ البارزين الذين تتلمذوا على يد اللغوي فيرث صاحب النظرية السياقية، وهؤلاء الثلاثة هم : د. محمود السعران ود. تمام حسان، ود. كمال بشر، حيث أخذوا النظرية عن أستاذهم "فيرث"، ونقلوا أفكاره إلى الدرس اللغوي العربي.

---

١ ينظر: المصدر نفسه،: ٩٢-٩٣.

٢ نحلة ، محمود ، علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي ، ١٦٦.

خامسًا: قدم تمام حسان في بحث النظرية السياقية نموذجا متكاملا، واستعمالها استعمالا شاملا بشكل نظري وتطبيقي، فضلا عن استخدامه الطرق التحليلية التي تقدمها فروع الدراسات اللغوية المختلفة: الصوتيات والصرف والنحو(أدوات تحليل المعنى الوظيفي).

المراجع:

- ابن الأنباري، محمد بن القاسم، **الأضداد**، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩١م.
- ابن جني، أبي الفتح عثمان، **الخصائص**، تح: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، **مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٧م.
- ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١م.
- أبو بكر، محمد بن السري بن سهل بن السراج، **الأصول في علم النحو**، تح: عبد الحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت.
- بشر، كمال ، **دراسات في علم اللغة، (القسم الثاني)** ، دار المعارف ، مصر ، ط٢، ١٩٧١م.
- حسان ، تمام ، **اجتهادات لغوية** ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
- حسان ، تمام ، **اللغة العربية معناها ومبناها**، عالم الكتب ، القاهرة، ط٣ ، ١٩٩٨م.
- حسان ، تمام ، **اللغة بين المعيارية والوصفية** ، عالم الكتب، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م.
- حماسة، محمد عبد اللطيف، **النحو و الدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي**، دار غريب، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.
- خليل ، حلمي ، **الكلمة دراسة لغوية معجمية** ، دار المعرفة الجامعية ، ط٢ ، ١٩٩٨م
- خليل، حلمي ، **العربية وعلم اللغة البنيوي**، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.
- خليل، عبد النعيم ، **النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين**، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١.

- خليل، عبد النعيم ، **النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين**، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط١.
- الرّمالي، ممدوح عبد الرحمن، **العربية والوظائف النحوية ، دراسة في اتساع النظام والأساليب**، دار المعرفة الجامعية.
- السعران ، محمود ، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، دار الفكر العربي، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٧م.
- سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط٣ ، ١٩٨٨م.
- صحراوي، مسعود، **التداولية عند العلماء العرب**، دار الطليعة، بيروت، لبنان ، ط١، ٢٠٠٥م.
- عبد الجليل ، عبد القادر ، **علم اللسانيات الحديثة** ، دار الصفاء، عمان ، الأردن، ط١، ٢٠٠٢م.
- المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، **المقتضب**، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- مجمع اللغة العربية ، **المعجم الوسيط** ، مطابع الأوفست ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٥م.
- مرتاض، عبد الجليل، **في رحاب اللغة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠٠٤م.
- نحلة ، محمود ، **علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي** ، مكتبة الفكر، الاسكندرية، ١٩٩٨م.